الأقصوصة العربية في فلسطين المحتلة

بقلم صبري حافظ

يفتح الادب الفلسطيني المكتوب في الارض المحتلة عيون القارىء العربي على عالم جديد ، وعلى آفاق بكر ، وعلى رؤى مغايرة لنفس القضايا التي سبق ان تناولها الادب العربي في مختلف البلدان العربية .. ليس فقط لانه يصدر من قلب الجرح الكبير الذي لا يعرف المساومة ، ويعبر عن احساس عميق ومعاناة حقيقية لعشرات القضايا والاحاسيس التي تناولها الادب العربي من قبل من الخارج ، من منطلق المشاهدة او حتى اصطناع المشاركة . ولكن ايضا لانه استطاع في نماذجه الجيدة العديدة ان يكون رفيقا فنيا لحركات المقاومة والتحرير التي جرت فوق الارض الفلسطينية المحتلة . وان يكون شاهدا على مجازر العسف والارهاب .. شاهدا يسجل ويحفز ويستثير .. يسجل هذا الواقع الضاري بصورة تدعو الى تجاوزه وتخطيه، وتكشف لانسانيته وتفضح زيف المغتصب الصهيوني وادعاءاته .. ويحفز الانسان الفلسطيني على النضال .. ويستثير في داخله كل الذكريات والقيم والاحاسيس التي يعمل الاستعمار الاستيطاني على تاكيدها حتى يكرس الحيلولة بين العرب في فلسطين وتاريخهم وارضهم وتراثهم ، وتعود الالفة المفتقدة بين الانسان والارض ، ويبذر في داخل العربي الفلسطيني الاحساس اليقيني بان الارض ارضه والوطن وطنه برغم كل الاوضاع الجائرة والحواجز المختلفة .

ومن هنا فان الادب الفلسطيني الناضج ادب مقاوم بحق ـ وبرغم الذين لا يدركون ان النوعية الخاصة للمعركة في الارض المحتلة والظروف القاسية التي يصدر هذا الادب في ظلها ، هي التي تمنح المقاومة في هذا الادب أبعادا جديدة ، وطبيعة مغايرة لما ألفناه من مقاومة الخطب والشعارات والمعارك التقليدية الواضحة .. ادب مقاوم بحق لانه استطاع ان يسهم في بلورة الشخصية القومية وفي ايقاظها بعد صدمة القهر والهزيمة ، وان يذكي روح الصمود والمقاومة في وجدان الشعب العربي ازاء محاولات الدولة اليهودية الراغبة في (تنظيف) الارض الفلسطينية من الفلسطينيين ، والحاق البقية الباقية منهم بفلول شعبهم المشرد حتى تقطع الطريق على كل امل في العودة ـ كما يقول توفيق زياد ـ وحتى يتحقق لها تاكيد التغلغل الراسي للمهاجر اليهودي في ارض فلسطين بعد ان أمنت له بالغدر والعدوان التغلغل الافقي فيها ، ولانه استطاع ان يحارب ببسالة وشرف في معركة البقاء فوق ارض الآباء والاجداد ، ويشعل منارات الصمود والمقاومة وسط هذا الليل الثقيل من الاضطهاد القومي البشع ، ولانه يدافع عن حق اللاجئين في الاوبة الى الارض الام ، يدافع عن هذا الحق بصورة مغايرة لتلك التي قدمتها أناشيد العودة الرومانسية التي تغنى بها الادب الفلسطيني في المنفى ، ولانه يحارب معركة ضارية ضد محاولات الصهيونية الدائمة لاذابة الشخصية الفلسطينية في هذا الكيان العنصري المشوه الذي اقيم فوق ارضها ، وضد السياسة المنهجة الرامية الى تجريد العرب من مشاعرهم القومية ، وطمس شخصيتهم وتمييعها ، واسدال ستار كثيف بينهما وبين تاريخها وتراثها .

فقد خلق هذا الادب الجسور القوية بين العربي الفلسطيني وتاريخه وتراثه من جهة ، وبينه وبين حركات التحرر الوطني في المنطقة العربية وفي العالم الخارجي من جهة اخرى . وفوق هذه الجسور عبرت عشرات الاعمال الفنية والقيم الانسانية التي أيقظت في الانسان العربي في الارض المحتلة انسانيته وقوميته معا ، واستثارت فيه الرغبة في تحرير الارض وعمقت احساسه بتغلغل جذوره فيها .

والادب الفلسطيني المقاوم في الارض المحتلة امتداد للادب الذي قاوم الاستعمار الانكليزي ، والذي وقف في وجه مخططات الهجرة اليهودية قبل ظهور الدولة اليهودية بسنوات طويلة .. وامتداد للادب العربي المقاوم وللادب الثوري والانساني مهما كانت جنسيته . فشعر الارض المحتلة الذي حظي باهتمام كبير عقب حرب يونيو امتداد للشعر الثوري الفلسطيني عند عبد الرحيم محمود وأبي سلمى وابراهيم طوقان ومطلق عبد الخالق .. وللشعر الثوري العربي والانساني عند بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وعبد الرحمن الشرقاوي ولوركا ونيرودا وآراغون .. وقصص الارض المحتلة امتداد طبيعي هي الاخرى لرحلة الاقصوصة الفلسطينية مع التطور والنضال عند محمود سيف الدين الايراني وعبد الحميد ياسين ومحمد اديب العامري وفارس ملحس ونجاتي صدقي وغيرهم .. امتداد مغاير لذلك الامتداد الذي قدمته الاقصوصة الفلسطينية في المنفى عند سميرة عزام وعيسى الناعوري وغسان كنفاني ويوسف جاد الحق واحمد العناني ونبيل خوري وغيرهم .

واذا كانت النماذج التي وصلتنا من القصص العربية المكتوبة في الارض المحتلة شحيحة للغاية اذا ما قيست بوفرة الشعر النسبية ، فلم استطع ان اعثر على اكثر من ثلاث وثلاثين قصة قصيرة كتبت في الارض المحتلة خلال السنوات الثلاث التي أعقبت حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، فان هذه النماذج القليلة قادرة على ان تؤكد لنا حقيقتين : أولاهما ان هناك حركة قصصية ناضجة في الارض المحتلة ، تشكل

تيارا فنيا له سماته المشتركة وملامحه المميزة عن أي تيار أقصوصي اخر من تيارات الاقصوصة العربية المعاصرة . وتأتيتهما ان السمات المشتركة والارض الفكرية المشتركة لم تحل دون تمايز كل كاتب من الكتاب العشرة الذين قرأت لهم ونفرده . ولنبدأ اولا بالحديث عن السمات المشتركة ..

تتسم معظم الاقاصيص التي استطعت العثور عليها من اقاصيص الارض المحتلة بمجموعة من الخصائص والرؤى المشتركة التي تكسب هذه النماذج مذاقها الخاص وطبيعتها المغايرة لطبيعة الاقصوصة الفلسطينية التي كتبت في المنفى . فاقاصيص الارض المحتلة تختلف بصورة جذرية عن الاقاصيص العربية التي تناولت بصورة او باخرى مأساة فلسطين . ليس فقط لان هذه الاقصوصة لم تكتب من بعيد .. من الخارج ، بل كتبها القصاصون من قلب الجرح .. كتبوا عن القرى والبيوت المهدومة وهم يقفون امام انقاضها ، وعن المظاهرات الدامية وهم يلمسون بأيديهم دماء المتظاهرين قبل أن تجف ، وتتردد في آذانهم أصداء هتافاتهم .. وعن لحظات اللقاء الرهيبة وهم يشهدون اغوراق الاعين بالدموع وتعثر الالسنة بالكلمات .. وعن العسف والاضطهاد في داخل زنزانات السجن الكئيبة .. وعن الارض المصادرة وفي أيديهم أوراق نزع الملكية الساخنة ، وتحت أعينهم الاجسام الممددة أمام التراكتورات .. وعن عبير البرتقال وهم يتنسمونه ، وعن اشجار الزيتون وهم يتفيأون ظلالها .. ليس لكل هذا فحسب تكتسب اقصوصة الارض المحتلة مذاقها الخاص ، ولكن ايضا لان الاقصوصة المكتوبة في فلسطين المحتلة تطرح رؤى جديدة لنفس القضية الفلسطينية القديمة، وتستشرف ابعادا مغايرة لتلك التي ألفناها ، وتكشف عن جزئيات بسيطة للغاية ولكنها ظلت برغم بساطتها غائبة عن أفق الاقصوصة العربية التي كتبت عن فلسطين لسنوات طويلة .

ومن البداية سنجد الاحساس العميق بالارض ـ تلك الارض التي تلوح في شعر الارض المحتلة أما وأختا وحبيبة ـ يتغلغل في كل هذه الاقاصيص .. يطفو على السطح تارة .. وينبض تحت جلد الاحداث أخرى .. بينما يبرق للحظة خاطفة وفي الخلفية البعيدة ثالثة . ولكنه يرين ابدا فوق أفق جميع الاقاصيص . ويسفر هذا الاحساس العميق بالارض عن نفسه في صور متعددة تخلق عددا من الجسور بين انسان الارض المحتلة وأرضه وتراثه ، فيلوح مرة تشبثا شديدا بالارض وادراكا واعيا لانه سيفقد كل شيء بفقدانها .. العمل والامل والكرامة ، وحتى الكينونة الانسانية ذاتها . ويلوح أخرى احساسا حادا بالمواطنة، وبالانتماء الى هذه الارض التي تسيطر عليها أقدار جائرة . بينما يتبدى ثالثة احساسا متوهجا بالتاريخ الطويل المستمر ، وبالجذور المتغلغلة في الارض ، واتصالا وثيقا بالماضي ، بتراثه المحفور في أخاديد الارض ، وباسلافه الذين ينبضون في عروقها جيلا وراء جيل . ويسفر عن نفسه مرة رابعة في تلك الرغبة الحارة في التعمير والبناء ، والحرث والبذار .. فالارض برغم كل شيء ارضهم وان كان زمامها ليس في ايديهم اليوم فسينتقل اليهم غدا . بينما يظل مرة خامسة من خلال ذلك الاحتفاء الشديد بالذكريات الصغيرة والملامح المحفورة في القلوب ، وبالنضاريس التي لا تنسى ، برغم سنين التشرد والعسف والحرمان .

ففي مجموعة توفيق فياض « الشارع الاصفر » (١) نلمس ذلك الاحساس العميق بالارض في كل أقاصيصها . في « الشارع الاصفر » وفي « الراعي حمدان » وفي « أم الخير » وفي « الكلب سمور » يظل ذلك الاحساس بوضوح سافر من صرخة امين اسعد بطل قصة « الشارع الاصفر » في وجه ريتا الاسرائيلية التي تناشده ان يختار المنفى : « لن اهجرها ابدا ، لانني اذا هجرتها تهجرني روحي وان نسيتها ينساني الفرح » . وفي كلمات حمدان الواضحة في « الراعي حمدان » : « بطلعش من هالبلد ، لو بقطس بزفافها وبلقاش مين يدفني ! حمدان قال كلمته وبرجعش فيها .. بدك تشرق يا نقل شرق ، أما حمدان درب النذال ماهيش دربه . وعمره ما نقل قوفها قدم .. مية الغربة عشاربها حنظل ، وبرسيمها الاخضر ع الغنم عليق » . في هذه الكلمات تتوحد الارض بالحياة ويتساوى هجرانها مع الموت ، وتلوح أما وأختا وحبيبة . أما في « الكلب سمور » فاننا نحس بمرارة كلمات قاسم الملتاعة وهي تقدم لنا في ايماءة سريعة حنظل المنفى بعد ان فاوم الكلب سمور كل محاولاتهم وعاد الى البلدة المهجورة : « ع الاول رجع يموت في الدار يابا .. مش منلنا ، نموت مهجرين من الجوع والعطش ، لا بيت ولا مأوى » . فما أطاق الكلب مرارة المنفى وأطاقها الانسان . وها هو قاسم يقدم لنا في كلماته المركزة تلك معنى هجران الارض .. الجوع والعطش ، الموت بلا بيت ولا مأوى . او بمعنى أكثر شمولا فقدان الانسان لانسانيته ووجوده .

وفي « لاننا نحب الارض » (٢) نحس بذلك التشبث المستميت بالارض ، ورفض كل الافتراءات المفضوحة للدولة الصهيونية ، تلك الافتراءات التي تدعي ان مرج بن عامر ، اخصب الاراضي الفلسطينية، كان احراشا مملوكة للدولة . وكأن هباط ال العدس الذي حدث عام ١٩٠٩ ، وقبل قيام الدولة المزعومة باربعة عقود كاملة لم يدفن تحته اربعمائة انسان في هذا المرج الخصيب الذي يركض على نفس واحد من بحيرة طبرية الى جبال الكرمل الجنوبية (٣) .. نلمس في هذه القصة مقابله فنية ناضجة بين الالتصاق الحميم بالارض والعمل بها ، وبين ادعاءات الدولة الصهيونية وافتراءاتها . وفي « اللجنة » لمحمد علي طه (٤) يسفر هذا الاحساس العميق بالارض وبالمواطنة عن نفسه من خلال تلك الرغبة المخلصة في البناء والتعمير . وذلك التسوق العارم الى تغيير أقدار هذه الارض والسيطرة على أعنتها . وفي « الاخذ بالثأر » (٥) نجد صورة اخرى لرغبة البناء والتعمير تلك .. صورة يصبح فيها التعمير واحدا من سبل الخلاص من جهامة العجز والاحباط ، وبشيرا بافتراب اللحظة التي ينهض فيها الفلسطيني عن نفسه عار الشلل والهزيمة . وفي « الميراث » لمحمد خاص (٦) يذهب الفنان بهذا الاحساس العميق بالارض خطوات بعيدة . اذ يصبح هذا الاحساس جزءا من الموروثات اليقينية الثابتة التي يبذرها الاجداد في نفوس الابناء والاحفاد ، وينفلت من محدودية الملكية المباشرة ليستوعب كل الارض التي يسيطر عليها المغتصب الصهيوني ، اذ يدفع الجد حفيده عندما يمر بالارض التي كانت له والتي اغتصبها منه الصهاينة ان يبذر قبضة قمح في هذه الارض ، حتى يتعمق في داخله، وبشكل حسي ملموس ، اليقين بان الارض ارضه وبان الوطن وطنه . اما في « الخرزة الزرقاء وعودة جبينة » لاميل حبيبي (٧) وهي واحدة من القصص الست التي تكون روايته الرائعة « سداسية الايام الستة » فاننا نتعرف على تلك التذكارات الصغيرة التي ظلت محفورة في وجدان الفلسطيني طوال عشرين عاما من النفي والتشريد .

ولننتقل الان الى السمة المشتركة الثانية ، وهي شديدة

---

(١) نشرت طبعتها الاولى بالناصرة ، مطبعة واوفست حكيم ١٩٦٩

(٢) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية ، عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .

(٣) راجع توفيق زياد « عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني »

(٤) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية ، عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .

(٥) نشرت بمجلة « الآداب » البيروتية عدد مايو ١٩٧٠ .

(٦) نشرت بمجلة « الطريق البيروتية عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .

(٧) نشرت بمجلة « الطريق البيروتية عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .

الالتصاق بهذا الاحساس العميق بالارض ونابعة من توهجه في كل اقاصيص الارض المحتلة .. هذه السمة هي التأكيد على ضرورة الفداء والمنافحة عن الارض وعن البقاء فوقها . وبهذه الضراوة الفدائية وحدها يؤكد العربي الفلسطيني حقه في البقاء وجدارته به . فأي تهاون ضئيل لا يفقده الارض وحدها بل يفقده انسانيته ذاتها . وتأخذ هذه السمة الجوهرية الهامة طابعا شديد التنضح والشفافية ، اذ تضطر لان تسفر عن نفسها عبر عدد من التحويرات المختلفة ، ومن خلف تلالات تتخفى بها وسفر عن نفسها من ورائها في نفس الوقت . فالقصص العربية المكتوبة في الارض المحتلة تقاوم الدولة الصهيونية ، لا بينما تصور من خلال سيطرة هذه الدولة الرقابية على شتى وسائل التعبير . ومن ثم يعمد الفنان وخاصة بالنسبة لهذه القضية التي يدعو فيها الى تقويض هذه الدولة من اساسها الى عدة اساليب يحاول من خلالها بالرمز تارة ، وبالمعادلات الموضوعية الشفيفة اخرى ان يمجد الفداء والمقاومة ، وان يقوم في عمله الفني بما تقوم به قوات الفدائيين بالعمل العسكري . لذلك نجد ان الفداء في الاقصوصة العربية في فلسطين المحتلة ليس شعارات زاعقة ، او احداثا خطابية عالية النبرة ، ولكنه روح تسري داخل العمل الفني ، تكمن في التركيب البنائي للاحداث بقدر كونها في طبيعة الشخصيات وفي تاريخها الطويل مع الاضطهاد والعذاب . ومن ثم يصبح الفداء جزءا من تكوين الحدث والشخصية معا ، ويصبح الدم المراق هو طقس التعميد الضروري في عرس الحياة ، وهو السبيل الوحيد الى فلسطين الجديدة .. فلسطين المحررة .

واذا كان الفداء هو طقس التعميد الضروري لاتساق الحياة وصيرورتها داخل الارض المحتلة ، فان اساليب النضال العديدة الاخرى تصبح الخبز اليومي للعرب فيها ، حيث نلمس في أغلب اقاصيص الارض المحتلة احتفاء واضحا بهذه الاساليب النضالية المشروعة منها وغير المشروعة ، وابرازا واضحا لدور هذه الوسائل في خلق التراكمات الكمية التي تهيىء الواقع والانسان معا للحظة التحرر الكيفية القادمة بلا ريب . ومن هنا لا تخلو واحدة من هذه الاقاصيص من الاشارة الى الفعالية الواضحة للاضرابات والمظاهرات وحركات التمرد والعصيان ، او الى تمجيد الصمود والصلابة في مواجهة العسف والتحايل على القوانين العدوانية الجائرة ، او من التأكيد على حوادث الاغتيال الجماعي باعتبارها الوقود الآدمي الذي يذكي روح الكفاح ويبقي على جذوته متوهجة مشتعلة ، قادرة على مواصلة الرحلة العسيرة نحو بشائر الحق والانتصار .

ففي قصة « النبع » لتوفيق فياض من مجموعته «الشارع الاصفر» نجد ان تضحية سالم البطولية كانت الثمن الذي أمن حياة القرية ، والذي مكن ابناءها من مواصلة الحياة بعد أن تهددهم الموت طويلا . ولذلك فان القرية كلها تذكر تضحيته وتخلص لذكراه . وفي « ام الخير » من نفس المجموعة نكبر تضحية حسن الحراث من أجل ام الخير العصية على الزمن والقهر والمرض ، الحنونة كالارض السخية ، فبعد ان كان كل ما لديها للجميع ، وبعد ان كانت بهمة يدها الخيرة تشفي المرضى وتهدهد المحزونين ، امتلأ جسدها - بعدما لدغتها الافعى الصهيونية السامة - بالقروح ، وهرب الذين طالما استمرأوا خيرها الى التلال والاكروم المقابلة . لكن حسن ظل وفيا لها مخلصا لحبها ، يروي جذعها الذي عجز عنه الموت فاستحال الى شجرة بقروحه ودمه ، فتورق في جفافه البراعم ، ثم تتساقط من الاغصان الدموع فتشفي القروح من جسد حسن المجهد بالطعنات . ولولا دماء حسن وتضحيته لما كبرت الشجرة الفلسطينية حتى اصبحت « تحتضن باغصانها المخضرة بيوت القرية كلها » . وفي « الراعي حمدان » نجد ان صراع حمدان مع الذئاب ، ذئاب الغدر والعدوان الراغبة في الاستيلاء على أرضه والتهام خرافه ، وان دماءه التي سالت في هذا الصراع الضاري الذي لم يكن يملك فيه سوى خنجره وذراعه ، هي التي مكنته من ان يستند - بعد ذلك باعوام طويلة - « الى جذع بينه قديمة .. وعيناه تسرحان فوق تلال الغرب .. وفي الليل ، فوق السطح .. خنجر في حزامه ، ومفلاع قديم ، بينما يكون رجع ارغوله الذي لا يعرف الملل ، آخر ما يرافق فارس الليل ، ذا الجواد الاشهب ، في خطره بين كروم الليل والزيتون » .. فدماء الفادي لا تخلص حياته فحسب من صنوف الذل والهوان ولكنها تخلص حياة الاحياء انفسهم من هذا الذل وترهف في اعماقهم الاحساس بالارض والحياة .

ففي « الآخذ بالثأر » لمحمد نفاع نجد ان دماء جدعان المسفوحة غدرا هي التي اشعلت في القرية الرغبة في بناء الحياة ، وهي التي حمت القرية من ان تدفع المزيد من دم بنيها ، ووفرت لهم الحياة الآمنة الرخية . وفي « الجمجمة رقم ١٤ » لمحمد نفاع (٨) ايضا نتيقن من انه اذا ما مسحت الارض الفلسطينية المحتلة ، فسوف توجد تحت كل شبر جماجم الذين ضحوا لنبقى هذه الاقلية المضطهدة حائلا بين اليهودي والتغلغل في هذه الارض . وفي « الشاطىء المهجور » لممدوح صعدي (٩) نرى كيف تدفع قرية بأكملها دماءها وآمنها وبيوتها ثمنا لحياة انسان فلسطيني فوق ارضه ، وكيف ان ثمن البقاء فوق ثرى الوطن باهظ الى هذا الحد ، دموي الى هذه الدرجة . وفي « الفرس » لتوفيق فياض نجد ان الصمود والمقاومة كانا السبيل الوحيد الذي مكن بو حسن من مواصلة الحياة فوق ارضه وانهما ايضا الطريق الذي عليه ان يسلكه للاحتفاظ بها في وجه اوامر المصادرة الزائفة : « لقد عانق ارضه في جحيم الحرب حيث هجر معظم الناس ارضهم ليبقى في قربها . وسيعانقها الان مرة اخرى الى ان يلفظ عليها انفاسه . اما ان يتخلى عنها فهذا مستحيل ، ولا بد له من ان ينتصر في النهاية » . هنا يبدو بوضوح التوحد بين الفداء والمقاومة وضرورة البقاء فوق ثرى الوطن .

اما في « الشارع الاصفر » فاننا نلمس عددا من اساليب المقاومة الاخرى غير التضحية والفداء ، مثل المظاهرات والاضرابات وتمجيد ذكرى الشهداء الخمسة الذين اغتالهم حرس حدود الدولة اليهودية . فالشارع الاصفر كما يقول ابن خلدون في دراسة له عن المجموعة في مجلة « الجديد » التي تصدر في حيفا « هي قصة المظاهرات التي اجتاحت حيفا قبل سنوات حين سقطت خمس زهرات في مقتبل العمر على الحدود بحجة محاولتهم تخطي الحدود الى الاقطار العربية .. آنذاك تماوجت الجماهير العربية في كل مكان بالغضبة والنقمة » (١٠) . وفي « الخط الوهمي » لمحمد علي طه (١١) فاننا نحس بأنه حتى العواطف الانسانية الصغيرة لا يمكن ان تتحقق الا من خلال التمرد على العسف الصهيوني ومقاومته . فلم يتحقق اللقاء بين بطلها وصديقه الا بعدما تمرد على هذا العسف واعلنت عن تمرده تلك الصفعة الداوية التي صك بها وجه الجندي الذي اراد ان يحول بينه وبين هذا اللقاء الانساني البسيط . وفي « لقاء بعد عشرين عاما » لنبيل عودة (١٢) نحس ان الالتقاء الحقيقي بالام .. بالارض .. يستحيل تحققه طالما بقي العدو الصهيوني فوقها ، ومن ثم فلا بد من مواجهة هذا العدو الشرس بصورة دامية . وفي قصة « لا لون للدم في الليل »

التتمة على الصفحة ٧١

---

(٨) ، (٩) نشرتا بعدد مجلة « الطريق » البيروتية الخاص بادب المقاومة ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨

(١٠) ابن خلدون اسم مستعار لناقد عربي يكتب في «الجديد» وقد اعيد نشر مقاله هذا في مجلة « الطريق » البيروتية عدد نوفمبر ١٩٦٩ .

(١١) نشرت بمجلة « الآداب » البيروتية ، اغسطس ١٩٦٩ نقلا عن « الاتحاد » .

(١٢) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ نقلا عن « الجديد » .

الاقصوصة العربية في فلسطين

تابع المنشور على الصفحة ٢٠

لمحمد خاص (١٣) نجد ان رباط الدم هو الذي يوثق بعرى لا تنفصم الرباط بين كل العرب المقيمين في فلسطين المحتلة ، وهو الذي يوحد بينهم جميعا . ولنكتف بهذا القدر من التدليل على سريان روح الفداء والمقاومة في أغلب الاقاصيص الفلسطينية . وقد أطلنا في تأكيد هذه الجزئية قليلا لانها تدمغ بدمائها المتوهجة كل الدعاوى القائلة بأن أدب الارض المحتلة ادب احتجاج ومعارضة ، وليس ادب ثورة ومقاومة .

تأتي بعد هاتين السمتين الهامتين السمة الثالثة المميزة لقصص الارض المحتلة وهي النظرة الجديدة لهزيمة العرب في يونيو ، والروح المتفائلة التي ينظر بها الفنان العربي الفلسطيني الذي عانى عشرات المصاعب والخطوب الى هذه الهزيمة العارضة التي ظنتها الدولةاليهودية تكريسا نهائيا لعدوانها البشع ، فلم ير في هذه الهزيمة سوى تكاثف الظلمة في (آخر الليل) او (دخان البراكين) المؤذن بانفجار حممها. ولم تكن هذه الهزيمة بالنسبة للفنان العربي في الارض المحتلة سلبا مطلقا ، اذ ايقظت فيه عدة اشياء ايجابية أرهفت فيه الاحساس بوحدة الوطن الذي ضمت الهزيمة نصفيه المشطورين ، ووحدت بذلك مشاعر الشعب الفلسطيني كله ، وطرحتقضيته بصورة جديدة ، وعمقت ادراكه لتلك العلاقة الجدلية بينالسلم والحرب ، حيث تيقن انالطريق الى السلام والامن المرتجى هو الحرب والفداء والمقاومة . فكما تكشف الحرب لا انسانية الانسان فانها تثير فيه انسانيته ، كما وضعت هذه الهزيمة الانسان الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها امام ذاته المهدرة وامام السؤال القاسي الرهيب : وماذا بعد ؟!

ففي قصة اميل حبيبي « السلطعون » (١٤) نلمس كيف ردت صدمة حزيران القاسية بطلها حريز اليقظان الى ذاته ووضعته وجها لوجه امام السؤال المرير القاسي .. وماذا بعد ؟ او ما هي النهاية ؟.. وتنتهي بنا القصة وقد تأكدنا من ان هذه الصدمة قد اكدت للعربي الفلسطيني ضرورة ان يتلفت حوله ـ لا في داخله ـ بوعي وفهم جديدين . وان يشارك بفعالية في كل وسائل النضال المشروعة منها وغير المشروعة حتى يساهم في خلق الفجر المرتقب .. ويؤكد على نفس هذا المعنى توفيق فياض في « ليلة القدر » ، تلك الليلة التي ستأتي حتما ولكن بسعينا نحن وليس بانتظارها . ومن هنا يكتسب خروج بطلها سنية في الليل ، وطلوع القمر المبارك لخروجها دلالات عديدة، في مقدمتها دلالة الفداء المبارك من الطبيعة والحياة .. واستضاءة البصيرة بنور الطريق الصحيح .. واقتراب الفجر بعدما تكاثفتالظلمة طوال هذه السنين .. وغير ذلك من الدلالات .

وهذه الهزيمة نفسها هي التي أخرجت الاستاذ (م) النموذج الملخص لقطاع كامل من فلسطينيي الارض المحتلة في قصة « واخيرا .. نور اللوز » لاميل حبيبي ـ من قصص السداسية ـ من قوقعته ، وهي التي دفعته الى الخروج من اهاب ذلك الخنوع الرهيب الذي استسلم له طوال اعوام عديدة ، ففقد بذلك ذاته وانسانيته . وهي التي ايقظت في « ام الروبابيكا » ـ من قصص السداسية ايضا ـ حنينها القديم في وصل التواريخ المقطوعة وراب صدوع تيار الحياة الانسانية المتواصل . وهي التي أتاحت ليوسف المجدلاوي في قصة محمد خاص « الميراث » ان يؤكد ان الارض في اعماق حفيده . وان يعقد بينها وبينه تلك الصلة العضوية الحميمة . وهي التي ايقظت بو علي بطل قصة توفيق فياض « الحارس » على بشاعة الواقع الذي يعيشه وأهاجت ذكرياته واشجانه وعمقت في داخله مرارة المفارقة . وهي قبل كل هذا ومعه التي عمقت في وجدان الفنان الفلسطيني حس العودة وبلورته كواحدة من السمات المميزة لادب المقاومة في فلسطين المحتلة .

وليست العودة ـ السمة الرابعة المشتركة في اقاصيص الوطن المحتل ـ هي نفس العودة التي الفناها فيما اصطلح على تسميته بادب العودة .. ذلك الادب المكتوب في المنفى التائق للوطن . ولكنها عودة مغايرة الى حد كبير .. عودة من لم يفقد الارض ولكنه فقد الامان والوطن بانشطار الوطن الفلسطيني الى نصفين ، نصف في المنفى ونصف في الاسر . كل من النصفين يحن الىالآخر. ولكن حنين الاسير، القاعد في وطنه المحروم منه غير احساس المنفى الذي يحمل الوطن على ظهره ذكريات ومشاعر . فقد حرم الفلسطيني الذي مكث في الارض المحتلة من عذوبة هذا الحلم الرومانسي الذي عاشه المنفي ، وشاهد بنفسه عالم الذكريات ـ التي يتمنى بها فلسطيني المنفى ـ وهو يتقوض ، وفلسطين الام وهي تنهار وتمسخ ، ومن ثم كانت العودة لديه هي الحلم بالانفلات من هذا الكابوس الراهن ، والتحرر من هذه المواضعات الحضارية الظالمة ، والحنين في نفس الوقت الى النصف المنفي من الوطن كواقع وكمواضعات . ليس الحنين الى اللحاق به في المنفى ، ولكن الحنين الى التوحد معه في ظل ظروف جديدة وحياة جديدة .

ففي « كلمات تقال » لمحمد علي طه (١٥) نلمس عمق احساس فلسطينيي الارض المحتلة بالوطن المنفي وبذويهم الذين غابوا معه خلف الحدود . وتواصلهم الحميم بهذا النصف الآخر الغائب ، وهذا نفسه ما نلمسه في قصته « سلاما وتحية » التي عنون بها المجموعة القصصية الاولى له والتي صدرت في الوطن المحتل في العام الماضي (١٩٦٩) . ويقدم لنا نفس الكاتب في قصة « اسبانيا » .. وهنا الايحاء بالاسم موفق جدا ، صورة تهكمية من قانون « الحاضر غايب » بالذات .. صورة تظهر مدى ارتباط المشردين في ديارهم بارضهم التي تحولت الى اطلال .. وبذويهم الذين تحولوا الى لاجئين كما يقول عفيف سالم في دراسته عن المجموعة بمجلة « الغد » في حيفا (١٦) . اما « الخط الوهمي » لنفس الكاتب ايضا فانها تقدم لنا تجسيدا فنيا للحظة اللقاء بين الشطرين .. بين المنفي والاسير .. ذلك اللقاء الذي يستحيل تحقيقه دونما تمرد على المواضعات الجائرة . وتقدم قصة نبيل عودة « لقاء بعد عشرين عاما » صورة اخرى لحلم العودة وهو يوشك آن يتحقق .. بينما تجسد لنا « حين سعد مسعود بابن عمه » لاميل حبيبي .. توق الفلسطيني في الارض المحتلة الى نصفه الآخر ، وكيف ان التقاء الشطرين الممزقين هو الذي حقق تكامل الحياة للانسان الفلسطيني . فحينما التقى مسعود بابن عمه بدات سلسلة احداث انسانية عديدة تحدث للمرة الاولى في حياته .. مؤكدة في نفس الوقت السمة السابقة ، وهي ان حتى الهزيمة لها جانبها الانساني في قصص الارض المحتلة .. لان الهزيمة هي التي جعلت هذا اللقاء المستحيل ممكنا . ولاميل حبيبي قصة اخرى ـ من السداسية ـ هي « العودة » تقدم لنا تنويعات فنية ناضجة من خلال لحظات شعرية متعددة من هذا الحدث الانساني الكبير .. حدث العودة . اما قصة « الحب فيقلبي »

---

(١٣) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية عدد يوليو ١٩٦٩ نقلا عن « الاتحاد » .

(١٤) نشرت في « الآداب » البيروتية ، ابريل ١٩٧٠ نقلا عن « الجديد » في حيفا .

(١٥) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ نقلا عن « الاتحاد » .

(١٦) اعادت مجلة « الطريق » نشر هذه الدراسة في عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .

ـ من السداسية ايضا ـ فانها تقدم التكثيف الكامل لفكرة العودة من وجهة نظر العرب المقيمين في الارض المحتلة .. العودة الى فلسطين الماضية ، ولفكرة التقاء النصفين المشطورين والتحامهما الانساني الحميم .

السمة الخاصة التي تسري في أغلب اقاصيص الارض المحتلة هي التأكيد على انغلاق عالم المدينة ـ رديف الحضارة ـ في وجه الفلسطيني في الارض المحتلة ، ومحاصرة البقية الباقية من العرب في الريف . وقد ادى الالتصاق بالريف الى تبلور الصلابة في وجه العسف والاضطهاد لدى ريفيي الارض المحتلة من العرب في مقابل التحلل النسبي لمن استطاعوا ان يفسحوا لهم مكانا وسط زحام المدن الصهيونية. لان هذا يعني انهم قد انحنوا امام المخطط الصهيوني الراغب في تذويب الشخصية الفلسطينية في هذا الكيان العنصري المشوه . ففي « الشارع الاصفر » نلمس هذه الحقيقة بوضوح من خلال هذا الغيتو العربي المضطهد في مدينة حيفا . ومن خلال محاولة نماذجه المتحللة المريضة الانتماء الى عالم العدو المستوطن فوق اشلاء آلاف الضحايا.. اما الشخصية المتناقضة لهذه الشريحة والتي تكاد تنخرط فيها بعد تجربة السجن المريرة ، أعني شخصية امين اسعد ، فانها تبدو لنا وقد ترك الاضطهاد بصماته عصابا على نفسيتها وسلوكها .

والحقيقة ان الفلسطيني الذي يعيش في عالم المدينة في الارض المحتلة لا يجد امامه حيال المواضعات الجائرة سوى سبيلين .. احلاهما في مرارة الحنظل .. اما اللوبان في هذا الكيان العنصري المشوه ، والانضمام الى الجيتو الجديد ، واما العكوف على الذات والتقوقع فيها .. اما اذا ما رفض السبيلين فان ابواب السجن والتعذيب والمحاضرة تفتح له على مصاريعها . هذا ما يحدث لامين اسعد بطل « الشارع الاصفر » ، الذي رفض الانخراط في الجيتو المطعون الذي يرقص حتى الصباح .. ورفض ايضا مصير حريز اليقظان بطل « السلطعون » الذي طارده عصاب الاضطهاد حتى قتله . فالانغلاق على الذات مع الوعي بلاعدالة الواقع ولاانسانيته ، ما يلبث ان يقوده الى الموت كمدا . وحريز اليقظان هذا صورة اخرى من الاستاذ (م) بطل « واخيرا .. نور اللوز » الذي نسي شخصيته وانسانيته من طول انغلاقه على نفسه وتململه من مسؤوليته حيال العالم المحيط به .. اما بطل قصة توفيق فياض « قطتي الشقراء » فانه تجسيد فني رائع لكل عصابات الاضطهاد التي يعاني منها ابناء المدن من العرب في الارض المحتلة .. هؤلاء المحرومون من الاصدقاء ومن الحياة الحرة دونما خوف ومن التحقق .

في مقابل هذه الصورة التي تقدمها قصص الارض المحتلة لانسان المدينة العربي نجد صورة الريفي المتشبث بالارض ، الصلب في مواجهة مؤامرة العسف والتزييف . نجد هذه الصورة في « لاننا نحب الارض » لمحمد نفاع وفي « الراعي حمدان » و « الفرس » و « الحارس » و « السديك الضائع » لتوفيق فياض ، وفي « اللجنة » و سلاما وتحية » لمحمد علي طه وفي « الميراث » و « لا لون للدم في الليل » لمحمد خاص وفي « ايام غبراء » لعفيف سالم و « مع الغروب » لمصطفى احمد (١٧) .. في كل هذه القصص ـ لاحظ وفرتها النسبية في مقابل اربع قصص تتناول عالم المدينة ـ نجد صورة حية للصلابة والتماسك والرجولة والتشبث بالارض وبالكرامة وبالحياة .

انتقل بعد ذلك الى السمة المشتركة السادسة وهي الاحتفاء الشديد بالطبيعة وتوظيفاتها توظيفا فنيا ناضجا .. ويرتوي هذا الاحتفاء بالطبيعة من توق الانسان الفلسطيني ـ من خلال الفنان بالطبع ـ انى التأكيد على ان حقوقه التي يناضح من اجلها جزء من نواميس الحياة المقدسة ، وان وقوف الدولة الصهيونية في وجه هذه الحقوق موقوت بطبعه لانه وقوف ضد ارادة الحياة وضد طبيعتها ومن ثم تحتفي الاقصوصة العربية في الارض المحتلة بالقمح والنبات والحيوانات الاليفة والضارية ، وكل مظاهر الحياة البكر . اما الطفولة .. الصورة العفوية البكر للحياة فانها تحظى في هذه الاقاصيص باهتمام كبير .. وخاصة لدى محمد نفاع في معظم اقاصيصه التي قرأتها ولا سيما في « حميد .. أحمد .. واخرون » (١٨) في هذه الاقصوصة المرهفة نشهد قداسا جنائزيا لعذرية الحياة وبكارتها التي اغتالها جنود الصهاينة في اجساد اطفالها الاثني عشر الفضة .. قداسا تشارك فيه كل جزئيات الطبيعة .. النهر والتل والمغارة .. الحقول والكروم .. الضوء والظلمة .. وتقف متجهمة حدادا على هذه الزهرات الفضة التي اغتيلت الحياة معها ، واحتجاجا صامتا على هذه المذبحة البربرية المروعة والتي فاقت في بشاعتها مذبحة كفر قاسم او دير ياسين . فالطبيعة في الاقصوصة الفلسطينية المكتوبة في الارض المحتلة ليست منظرا خلفيا مكملا ، ولكنها احد العوامل البنائية الاساسية ـ كالحدث والشخصية ـ التي يقدم من خلالها الفنان الفلسطيني ما يريد ان يقوله .

ومن ثم فان الطبيعة في هذه القصص تستحيل الى رموز حادة مثقلة بالدلالات ، تساهم في رحلة التخفي والتملص التي تقطعها هذه الاقاصيص حتى ترى النور ، عبر اجهزة الدولة اليهودية الرقابية. ومن ثم فان دراسة الطبيعة في هذه القصص تحتاج الى وقفة متانية.. وخاصة في اغلب اقاصيص توفيق فياض . وفي (نفق الى النور) لطارق عون الله (١٩) و(الميراث) لمحمد خاص و (الشاطىء المهجور) لممدوح صفوي و (الاخذ بالثأر) و (الجمجمة رقم ١٤) و (لاننا نحب الارض) لمحمد نفاع ايضا وفي (السلطعون) و (السداسية لاميل حبيبي .

تبقى بعد ذلك مجموعة من السمات والملامح المميزة التي تتصف بها هذه الاقاصيص .. بعضها امتداد لهذه السمات الرئيسية الست او تفرع عنها ، وبعضها الاخر ما زال جزئيا ولم يشمل سوى بعض النماذج دون معظمها . من هذه السمات ـ وساكتفي هنا ولضيق المجال بالاشارة السريعة اليها ـ كثرة الاشارة الى حالات العجز الجسدي او الروحي . والاحالات العديدة الى الاساطير والحكايات الشعبية ، والتصوير المرهف لعالم الطفولة المفتقد للطفولة المطارد بالمجازر الوحشية الرهيبة ، والتقديس الواضح للعمل وللبناء وللزرع والبذار بصفة خاصة ، والاحتفاء المبالغ فيه احيانا بالتذكارات الانسانية الصغيرة .. واستخدام الحيوانات كرموز بمنهج يقترب كثيرا من منهج (كليلة ودمنة) في بعض الاحيان ،والاكبار الواضح للعمل الفدائي الفلسطيني انظر (كلمات تقال) ـ التأكيد على ان الفلسطيني يفقد نفسه حينما يفقد قضيته .. وغير ذلك من السمات الجزئية التي تعمق مع السمات

---

(١٧) ، (١٨) اعيد نشر هذه الاقاصيص بمجلة « الطريق » نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .

١٩ ـ « الآداب » البيروتية مارس ١٩٧٠ .

الرئيسية الملامح الخاصة لعالم هذه الاقصوصة وتبلور معها تصورهـا ورؤاها لقضيتها ولانسانها .

كل الملامح التي تحدثت عنها من قبل اكثر التصاقا بعالم المعنى منها بعالم المبنى في هذه الاقاصيص . والحقيقة ان تناول الملامح لهذه الاقصوصة بسرعة وفي نهاية الدراسة عمل فيه اجحاف كبير لها ، لانها تحتاج الى دراسة ضافية خاصة . وسوف اكتفي هنا بالاشارة الى عدد من الملامح الهامة حتى يتاح لي ان اعود لها ، او يعود لها غيري في فسحة من الوقت . واول هذه الملامح واهمها هو ذلك الطعم الخاص للمبنى فياغلب هذه الاقاصيص. ويرتوي هذا المذاق الفريد من اقتراب هذه الاقصوصة الشديد من روح الحكاية الشعبية رؤية واسلوبا ، ومن لجوئها الى الكثير من اساليب تحطيم الفواصل بين المتلقي والحدث في نفس الوقت الذي تلجأ فيه الى الفنتازيا الاسطورية التي تستمد مادتها وتصوراتها من عالم الميثولوجيا الشعبية والدينية . السمة الثانية في بناء هذه الاقصوصة هي الاعتماد على الحوار الجدلي بين جزئيات الحدث وبين المصادر المتباينة للحقيقة ـ فنية كانت او واقعية ـ فيه . والتجاوز النسبي عن اسلوب المقدمات التي تقود بدورها الى نتائج منطقية . فالفنان الفلسطيني يتعامل مع اكثر الوقائع ضراوة وتعقيدا ويصدر من خلال اشرس المؤسسات رقابة وقمعا . ومن ثم كان عليه ان يعكس كل هذه الحقائق في مبناه وفي معناه معا . والسمة الثالثة هي التركيز والتكثيف ووجود اكثر من مستوى واحد للمعنى في القصة الواحدة . وتتبع هذه المستويات المتعددة للمعنى من الاستعمال الحاذق لاسلوب المفارقة كاساس بنائي . وليس من اللجوء الى المجازات او الرموز .. ولا يعني هذا خلو هذه الاقصوصة الفلسطينية من الرمز، بل ان الاهتمام بالرمز يشكل السمة التالية لها . ولكن الرمز هنا شيء غير الرموزالمبتذلة التي تقعد حتى عن ان تكون دلالة واضحة او مجازا. فهو رمز شفيف للغاية . موح .. عامر بالدلالات . لا ينبع من معادل فني محدود الدلالة ولكن من الصورة الكلية لعلاقات المفارقة والتوازي في العمل الفني . السمة الخامسة هي الغنائية بمعناها الشعري الرحب ، تلك الغنائية التي تعتمد على الاستخدام الحساس للغة الشعرية الموحية غالبا ، وعلى اسلوب المونتاج في البناء احيانا ـ انظر (نفق الى النور) و (العودة) ـ وعلى الاشارات المرهفة للطبيعة ، وعلى الحديث عن شيء من خلال شيء آخر .. وعلى غير ذلك من اساليب الشعر البنائية . وهناك .. والى جانب استخدام كل هذه الاساليب البنائية الراقية تسير جنبا الى جنب رغبة الفنان الفلسطيني في الوضوح وفي الوصول الى الجماهير . وفي خلق شفرته الخاصة بينه وبينهم .. شفرة يفهمونها هم ولا يفهمها العدو ، او يحس بها ولكنه لا يستطيع القبض عليها .. ومن هنا كانت سعادة الفنان الفلسطيني وعذابه معا .

وفي النهاية . فان كل هذه السمات المشتركة التي يلوح خلالها كتاب الارض المحتلة وكانهم يصدرون عن رؤية واحدة وعن موقف فكري واحد ، او كانهم فنان كبير واحد يمسك بعشرة اقلام ، لا تنفي بأي حال من الاحوال تفردهم بالصورة التي يصبح معها لكل كاتب منهم داخل هذه السمات المشتركة ومن خلال عالمها الرحيب عالمه الخاص الذي يرتوي من خبراته الخاصة ومن الرقعة الزمانية والمكانية والانسانية التيخبرها وعانى تفاصيلها ، والتي استطاع من خلالها ان يستوعب الهموم العامة لهذا العالم الانساني الفريد .

القاهرة .

صبري حافظ

النشاط الجنسي وصراع الطبقات

تاليف رايموت رايش — ترجمة محمد عيتاني

« هذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليلة الى القراء العرب الذين يبحثون عن اسهام في حلول صحيحة لمشاكلهم على اسس منهجية سليمة ، وبصرف النظر عن المحرمات الغيبية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .. فهو يدرس ، على اساس علمي واحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين اساسيين من المجتمعات الرأسمالية المتطورة : جمهورية المانيا الاتحادية والولايات المتحدة الاميركية. حيث يحدث التطور ـ ليس نحو الافضل ـ لاوضاع الحياة والعلاقات الجنسية تحت نير الاستثمار الرأسمالي الاحتكاري، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقا للنضال ضد القمع الحقيقي الذي تعانيه الطبقات الشعبية فياوضاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية .

ويضع المؤلف يده على العلل الرئيسية التي تطبع مشاكل هذه المجتمعات الرأسمالية في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي ادماج كل الحياة الجنسية لجميع فئات الامة داخل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحياة الجنسية وجعلها مجرد سلعة ، واعطاؤها وظيفة غرض استهلاكي ، وحرمان الجسد البشري ـ معجزة الطبيعة الرائعة ـ من مزاياه الجنسية والوجدانية ، وصرف الغرائز الجنسية نحو نزعة عدوانية موجهة .. وليس هذا كله سوى الشكل الراهن للاستثمار الرأسمالي .. ولذلك فان مسألة « الاستراتيجية الجنسية » لن تجد مكانها الا في المجمل المتلاحم من النضال السياسي المضاد للرأسمالية ، دفاعيا وهجوميا ..

وقد اعتمد المؤلف على منهجين قد يبدوان متناقضين : هما المنهج الماركسي والطريقة الفرويدية (علم التحليل النفسي) ليؤكد قانونا اساسيا صفة الشمولية ، ويمكن ان نفد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعنا العربي ، وهو « قانون التكييف الرأسمالي التضليلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الاستثمار والاضطهاد لجماهير المنتجين » .

صدر حديثا ٦٠٠ ق . ل .